العودة المتخيلة ـ الحاضر

هاني أبو أسعد*

العودة إلى المستقبل

في سنة ١٩٤٨، لم تُهجّر عائلتي من فلسطين، وإنما لجأت إلى كنيسة البشارة في الناصرة. لقد مسحت موجة التطهير العرقي الصهيونية كل قرية وبلدة فلسطينية غربي الناصرة، لكن عندما وصل الصهيونيون إلى المدينة التاريخية تردد الجنرال المسؤول آنذاك في استخدام القوة ضد أولئك الذين احتموا داخل الكنيسة، وقام بطلب أمر رسمي مكتوب بذلك من "ديفيد بن ـ غوريون" الذي بدوره تردد إزاء الطلب، إذ إنه لم يجرؤ على إصدار أمر مكتوب على الرغم من أنه أراد المدينة "خالية".

وهكذا، بينما تهجّر الكثيرون، بقي أولئك الذين لجأوا إلى داخل الكنيسة، لكن عندما خرجوا منها وجدوا أنهم وقعوا، بين ليلة وضحاها، تحت حكم ميليشيات صهيونية. وعلى هذا الأساس، عاشت عائلتي تجربة النكبة بشكل يختلف عن أولئك الذين هُجّروا، ولديها أيضاً نظرة مختلفة عن العودة.

وُلدت، سنة ١٩٦١، تحت الاحتلال الصهيوني. والعودة بالنسبة إليّ، تعني نهاية الاحتلال والعنصرية وعودة اللاجئين إلى وطنهم، بل أكثر من ذلك كثيراً.

يمكن للعودة أن تتحقق، على المستوى الأساسي، من خلال طريقين: المفاوضات السلمية أو الحرب. وللأسف، فإن فرص تحقق العودة من خلال المفاوضات السلمية تقترب من الصفر، وذلك لعدة أسباب:

أولاً، يتطلب الحفاظ على دولة حصرية لليهود في منطقة يعيش فيها غير اليهود، تطهيراً عرقياً مستمراً، واضطهاداً وتمييزاً عنصرياً متواصلاً.

ثانياً، يتطلب الأمر أيضاً التلاعب وخداع الشعب الإسرائيلي، الأمر الذي خلق سكاناً واهمين في إسرائيل. لقد أصبحت فكرة الدولة اليهودية مصيرية إلى حد عبثي، ومبنية على أساس وجودي يسود فيه المنطق الوحيد الذي يهمّ القادة الصهيونيين وأتباعهم، وهو منطق القوة.

---

* سينمائي فلسطيني.

أخيراً، يتوجب الحفاظ على الدولة اليهودية الحفاظ على تفوقها على الدول المجاورة، وفي الوقت نفسه إضعاف وإعاقة تطور هذه الدول وشعوبها. هذه الديناميات الثلاث لن تخلق أبداً الظروف المثالية لتحقيق الحل السلمي.

إذاً، كيف سيبدو شكل السيناريو القائم على الحرب؟

إن إسرائيل تُدار بمنطق القوة العسكرية، مدعومة بحلفاء اقتصاديين وسياسيين أقوياء، غير أن للقوة العسكرية حدوداً، فأنت يمكنك امتلاك القدرة على تدمير العالم، لكن إذا قمتَ بذلك تكون قد دمرت نفسك؛ وعندما تدير دولة وفق منطق القوة بشكل حصري، فإنك تقود هذه الدولة إلى المواجهة المحتومة. وبالنسبة إلى إسرائيل، فإن تلك المواجهة ستكون مع محور المقاومة الذي يشمل كل مَن يرفض قبول منطق القوة الظالم.

لا يستطيع أحد، طبعاً، أن يعرف بالضبط متى سيحدث ذلك، أو بأي ثمن ـ إلاّ إن العديد من الأرواح ستُزهق. أود، في هذه المقالة، أن أفحص السؤال التالي: ماذا سيحدث عندما تخسر إسرائيل الحرب؟

توقعاتي: في اللحظة التي سيبدو فيها أن الجيش الإسرائيلي سيخسر، فإن كل إسرائيلي يحمل الجنسية المزدوجة ـ ما يقارب نصف السكان اليهود ـ سيغادر على الفور. فالعديد من الإسرائيليين سيخافون من انتقام الفلسطينيين، حتى لو تم وعدهم بمعاملة عادلة ومتساوية، ذلك بأن فكرة المساواة مع العرب بالنسبة إلى الذين تربّوا على منطق القوة والعنصرية، هي ببساطة غير مقبولة: يفضّل الإسرائيليون، في معظمهم، وفقاً لاستطلاع أُجري في إسرائيل، أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية خارج الشرق الأوسط، على أن يعيشوا متساوين مع العرب. سيغادرون، وستكون مغادرتهم طوعية، ولن يتركوا وراءهم دمار الحرب فحسب، بل سيخلّفون الانهيار الاقتصادي أيضاً.

سيُقدّم هذا السيناريو للفلسطينيين أربعة تحديات رئيسية: ١) إعادة بناء البنية التحتية والنظم الاقتصادية والسياسية للدولة؛ ٢) إعادة توطين اللاجئين وإيجاد التناغم والانسجام بين مختلف فئاتهم؛ ٣) كيفية التعامل مع السكان اليهود الذين لم يفروا؛ ٤) إقامة علاقات جديدة مع المنطقة وبقية العالم.

ستكون هذه تحديات هائلة بالتأكيد، ولعل أكثر ما يثير اهتمامي، من وجهة نظر أخلاقية وفكرية، هو مصير أولئك اليهود الذين لم يغادروا أو لم يتمكنوا من المغادرة. سيمثل هؤلاء مجموعة متنوعة تشمل بعض الصهيونيين المتعصبين المصممين على البقاء حتى النهاية المريرة، لكنهم سيتشكلون في الأساس من اليهود الذين قَدِمَت عائلاتهم من الدول العربية وليس لديهم مكان آخر يذهبون إليه.

سيكون السؤال الرئيسي على النحو التالي: هل يقدر الفلسطينيون على إعادة بناء دولة مكسورة، وتحويلها إلى دولة ديمقراطية متساوية وعادلة لجميع الناس؟ إن الإجابة عن هذا السؤال هي في خطتنا بشأن كيفية تعاملنا مع السكان اليهود. ففي الوقت الذي سيُعْذَر أي شخص افترض قيام الفلسطينيين بالانتقام من عقود طويلة من الاضطهاد، أعتقد أن العالم

سيتفاجأ من قَدْر العفو والتسامح اللذين سيبديهما الفلسطينيون تجاه السكان اليهود.

لقد كان دائماً في لبّ نضالنا رغبة في العيش، وليس في القتال. حتى قبل النكبة، كنا منفتحين على الغرباء، وآمنّا بالتعايش ـ كنّا أول مَن قَبِل في العالم اللاجئين الأرمن الفارّين من الإبادة الجماعية التركية، واللاجئين اليهود الذين وقعوا ضحايا معاداة السامية في أوروبا، قبل وعد بلفور. لم تُغير عقود الاحتلال ماهيتنا كشعب، وإنما عززت حبنا للحياة والمساواة. وبسبب ذلك، فإننا لن نكرر عقاب مضطهدينا، بل سنسعى للمصالحة والمضي معاً قدماً.

سيوجد، بالتأكيد، بعض الفلسطينيين الذين سيسيئون، لأسباب سياسية، استخدام غضب الشعب للتحريض على العنف والتمييز ضد اليهود، لكن سيكون هناك دور لمعظم الفلسطينيين في الوقوف ضد هذه الأصوات إلى جانب العدالة والإنصاف.

إن مستقبل فلسطين، بطبيعة الحال، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمنطقة ككل. لن يعتمد الأمر فقط على كيفية اختيار محور المقاومة خوض هذه الحرب، بل الأهم من ذلك ماهية الخطط التي تليها. في النهاية، يجب عدم تصور العودة كإحقاق عدالة للفلسطينيين فحسب، بل لجميع سكان المنطقة أيضاً. ما نتمناه ليس عودة إلى الماضي، بل عودة إلى المستقبل. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

مراجعة السياسات الإسرائيلية تجاه القضية الفلسطينية

تحرير

جميل هلال ومنير فخر الدين وخالد فراج

٣٨٨ صفحة ١٢ دولاراً